بين النفس والعقل

بقلم : الدكتور محمد مصطفى حلمى

أستاذ الفلسفة الإسلامية والتصوف بكلية الآداب بجامعة القاهرة

جلس المريد المسترشد بين يدى شيخه المرشد ، وكان الشيخ متهيئا لأن يتم ما بدأ ، ويصل ما انقطع ، من حديث العقل ، فإذا هو يوجه خطابه إلى مريده فيقول :

لعلك تذكر يا بنى أنى حدثتك فى الحديث السابق عن العقل ، فقلت لك : إنى سأقف بك عند الأسماء التى تطلق على العقل ، وعلى المعانى النظرية والعملية التى تنطوى عليها هذه الأسماء ، وعند التعريفات التى وضعت تحديداً لمعنى العقل وإظهاراً لحقيقته . وذلك كله لكى تتهيأ بالعلم والعمل لما أردت أن أهيئك له فى حياتك الخاصة والعامة من اصطناع العقل فى كل شىء ، وإيثاره على كل شىء ، وجعله حكما بينك وبين كل شىء ، بحيث تحقق فيما تؤتى من علم وما تأتى من عمل المثل الأعلى الذى أردتك على تحقيقه عندما قلت لك : « كن عقلا واعياً » .

ولعلك تذكر أيضاً أنى لم أكد أفرغ من بيان الأسماء التى تطلق على العقل وإظهار معانيها ، حتى سألتنى سؤالا نقلتنا الإجابة عنه من حديث العقل وحقيقته ، إلى حديث العقل ووظيفته ، فلم أعرض لما عسى أن يكون تعريفات للعقل تحدد ماهيته وتظهر حقيقته ، وهذا ما أحاول فى حديث اليوم أن أعرض له ، وما أرجو أن أوفق فيه .

قال المريد المسترشد :

ألا ترى ياسيدى أنه لكى يعرف العقل تعريفاً سليما ، ويفهم معناه فهماً

مستقيما ، فلا بد من أن نعرف شيئا عن النفس الإنسانية وقواها ، وعن مكان العقل منها ، وعن صلته بها ، فكل أولئك من شأنه أن يعيننا على معرفة أنفسنا أولا ، ثم على معرفة عقولنا بعد ذلك ، حتى إذا أردنا أن نكون عقولا واعية ، وأن تكون حياتنا النظرية والعملية حياة عقلية خالصة ، لم نجد فى ذلك مشقة ولا عسرا وكنا بذلك أقوم قيلا ، وأهدى سبيلا ، وكان كل ما يصدر عنا عند ذاك من فكرة وخطرة ، ومن قول وفعل إنما يصدر عن نفس عارفة بنفسها ، عالمة بعقلها وحسها ، واقفة على مواطن الضعف والقوة منها ، قائمة على مصادر القبح والحسن فيها .

ولم يكد يفرغ المريد المسترشد من كلامه ذاك ، حتى ابتسم له الشيخ المرشد ابتسامة ملؤها الإقبال عليه ، والرضا عنه ، والإعجاب به : ذلك بأنه قد بان للشيخ مبلغ ما أصاب مريده من توفيق فى إبداء هذه الملاحظة التى تشير إلى الصلة بين النفس والعقل من ناحية ، وبين معرفة النفس وبين معرفة العقل من ناحية أخرى . وفضلا عن هذا فقد عرف الشيخ أن مريده لم يعد يرسل الكلام إرسالا لا رابط له ، ولا هو يسترسل فى الحديث استرسالا لا ضابط له ، ولا هو يعترض حبا فى الاعتراض ، أو إشباعا لغرور الشباب ، على نحو ما يفعل المغرورون المفتونون من طلاب العلم الذين يملك عليهم الغرور وحب الظهور نفوسهم وعقولهم ، فإذا هم يحدثون أو يجادلون وقد خيل لهم أنهم أوتوا من العلم ما لم يؤته غيرهم ، والواقع أنهم لم يؤتوا من العلم إلا قليلا ، وأن أكثر ما يدعون من علم ، وما يزعمون من معرفة ، وما يتشدقون به من ألفاظ وعبارات ، وما يتفيهقون به من حجج واعتراضات ، كل أولئك ليس شيئا إذا قيس إلى ما يجهلون من معارف ومعلومات ، وهم فيما يصطنعون من كل أولئك إنما يعمدون إلى ادعاء العلم وإخفاء الجهل ، وإظهار أشخاصهم عند أساتذتهم وظهورهم على أقرانهم ، وما دروا أن شيئا من هذا كله أو بعضه ليس من خلق العالم أو المتعلم فى شىء ، وإنما هو من أخص خصائص الجاهل والمتعالم فى كل شىء ، وما أحرى العالم فيما يلقن والمتعلم فيما يتلقى أن يكون قصد كليهما إلى وجهة العلم لذاته ، لا يريدان به تعاليا أو تعالما أو ظهورا ،

ولا يبتغيان من ورائه جزاء ولا شكوراً .

دارت هذه الأفكار برأس الشيخ، وعملت عملها فى نفسه وهو يستمع إلى مريده ملاحظاً أو معقبا ، فإذا هو يوجه إليه الخطاب قائلا :

إنك لعلى حق يا بنى فيما أبديت من ضرورة التمهيد للحديث عن العقل بالحديث عن النفس . وإذا كان ذلك كذلك ، وكانت صلة العقل بالنفس على ما بينت ، فقد تعين أن نلم إلمامة موجزة بمعنى النفس وخصائصها ، وأن نعقب بعد ذلك بإلمامة أخرى عن العقل ومنزلته من النفس .

ولعل أول ما يقال فى هذا المقام هو أن النفس يمكن أن ينظر إليها من وجهات نظر مختلفة ، كما أن معانيها تختلف باختلاف وجهات النظر هذه : فللنفس معان طبيعية وميتافيزيقية ونفسية وأخلاقية وقدسية ، وهى بحكم كل من هذه المعانى تعد موضوعا لعلم من العلوم : فهى بمعناها الطبيعى موضوع لعلم النفس ؛ وهى بحكم معناها الميتافيزيقى موضوع لعلم ما بعد الطبيعة أو الميتافيزيقا ؛ وهى بحكم معناها الأخلاقى موضوع لعلم الأخلاق وهى بحكم معناها القدسى موضوع لعلم التصوف . ولن أفصل القول معك فى هذه العلوم التى تتناول النفس ، فذلك ما أرجو أن أعرض له فى طائفة أخرى من أحاديثنا ، وحسبى فى هذا الحديث أن أظهرك على بعض تعريفات للنفس ؛ وأن أخلى بينك وبين هذه التعريفات ، تعمل فكرك فيها ؛ وتستشف بنفسك معنى النفس فى كل منها ، وما أحسبك واجداً فى هذا مشقة أو استكراهاً .

فمن هذا القبيل ما عرفت به النفس بصفة عامة من أنها جوهر بخارى لطيف ؛ حامل لقوى الحياة والحس والحركة الإرادية . والنفس بهذا المعنى جوهر متعلق بالبدن ، متصرف فيه ، مدبر له ، مشيع للحياة فيه . ومثل النفس فيما تشيع من الحياة فى البدن كمثل المصباح فيما يشع من ضوء : فاذا بلغ ضوء النفس إلى جميع أجزاء البدن ظاهرة وباطنة كان فى ذلك حياة ويقظة ؛ وإذا انقطع ضوءها عن ظاهر البدن دون باطنه كان فى ذلك ركود ونوم ؛ وإذا انقطع ضوءها عن أجزاء البدن كلها سواء ظاهرها وباطنها كان فى ذلك موت .

وتسمى النفس أمارة تارة ، ولوامة تارة أخرى . ومطمئنة تارة ثالثة . فهى أمارة بمعنى أنها تميل إلى

الطبيعة البدنية ، وتشتاق إلى إشباع اللذات الجسمية ، والشهوات الحسية ، وهى بحكم هـــذا تعد مصدراً للشر ، ومنبعا للأخلاق المذمومة . وهى لوامة بمعنى أنها كلما اقترفت إثماً ، أو اجترحت سيئة ، عادت إلى نفسها فلامتها ، فهى من هذه الناحية بمثابة المراقب والمحاسب . وهى مطمئنة بمعنى أنها تنورت بما أشرق عليها من أنوار قلبية ، وتهذبت بما فاض عليها من أسرار إلهية .

وتسمى النفس بعد هذا كله نفساً ناطقة حينا ، ونفسا قدسية حينا آخر . فهى باعتبارها ناطقة جوهر مجرد عن المادة من ناحية ، ومقارن للمادة من ناحية أخرى . ومعنى هذا بعبارة أخرى : أن النفس الناطقة مفارقة فى ذاتها للمادة ، ومقارنة فى أفعالها للمادة ويمكن أن أقول لك : إن النفس الناطقة هى هذا الجوهر العاقل فى الإنسان به يرى ويفكر ، وعليه يعول فيما يعقل ويدبر . وإذا استطاعت النفس أن تتمثل الحقائق تمثلا يقينيا ، وأن تستحضر الدقائق استحضاراً حدسياً ، فهى النفس القدسية التى تتصل ذاتها بموضوعها اتصالا مباشراً تسقط فيه الوسائط وتزول الحجب وينكشف المحجوب ، فيحصل الطالب على المطلوب ، ويصل المحب إلى المحبوب .

وبعد أن فرغ الشيخ من بيان المعانى المختلفة للنفس ، سأله المريد فقال :

إذا كان ذلك كذلك ، وكانت تلك جملة من معانى النفس ، فبأيها يكون الإنسان إنساناً على الحقيقة ؟ ومن أيها يقع العقل فى الإنسان حتى يكون عاقلا على التمام ، وخليقا بمعنى الإنسانية الذى يميزه عن سائر الأنعام ؟

قال الشيخ المرشد مجيباً :

إن للنفس الإنسانية ثلاث قوى : قوة عقلية ، وقوة غضبية ، وقوة شهوانية . والقوة العقلية هى التى تقود الإنسان إلى الحقائق وتجنبه البواطل ، وتظهره على الحسن فيتبعه ، وعلى القبح فيمنعه . والقوة الغضبية هى التى تحمل الإنسان على الحمية والأنفة ، وتغريه على القهر والغلبة ، وتثير فى نفسه حب السيطرة والاستعلاء ، وتفتنه بما يحرضه على العجب والكبرياء . والقوة الشهوانية هى التى تزين للإنسان مواطن اللذات ، وتغرقه فى بحار الشهوات .

واعلم يا بنى أن الإنسان لا يكون إنساناً بالمعنى الصحيح إلا إذا كانت

القوة العقلية هى الغالبة عليه ، والموجهة له ، بحيث لا يأخذ من سائر القوى إلا مالابد منه ، ولا غنى عنه ، وبحيث يقع التعادل بين قواه فيحصل التوازن بين أفعاله ، ويكون بمنجاة من الوقوع فى الزلل والحرج ، أو الإغراق فى الغلط والشطط .

وهنا يتبين لك يا بنى أن القوة العقلية فى النفس الإنسانية هى التى تتوقف عليها سلامة الإنسان من الناحية النظرية ، ونجاته من الناحية العملية : فهى إذا عملت عملها فقتلت فى نفس صاحبها قوته الغضبية ، وكبحت فيها جماح قوته الشهوانية ، فعند ذاك يصبح الإنسان قادراً على تحصيل المعرفة الصحيحة التامة ، فإذا هو يعرف حقائق الأشياء ، كما يصبح بحكم الخضوع لسلطان العقل مقبلا على الأوامر ، معرضا عن النواهى ، متجنبا لمواطن الشبهات ، مزوراً عن مفاتن اللذات والشهوات ،

وهكذا يتبين لك يا بنى وجه الاتصال بين النفس والعقل ، وماذا للعقل من أثر فى حياة الإنسان . أما ماهو العقل فى ذاته وحقيقته ، فذلك ما أرجو أن نقف عنده فى حديثنا المقبل .

بين منهجين

صوفى . . . وفقيه

كان الشافعى وأحمد بن حنبل يتدارسان العلم ، إذ أقبل شيبان الراعى ، فقال أحمد بن حنبل للشافعى : أريد أن أسأل هذا الرجل الصوفى المشار إليه فى هذا الزمان !!

فقال له الشافعى : لاتفعل ، فقال : لابد من ذلك ، ثم قال : ياشيبان ، ماتقول فيمن نسى أربع سجدات فى أربع ركعات !؟ فقال له : يا أحمد!! هذا قلب غافل عن الله يجب أن يؤدب ، حتى لايعود إلى مثل ذلك .

فأطرق أحمد برأسه طويلا ثم رفعه وقال : فما تقول فى زكاة من له أربعون شاة ؟ فقال على مذهبنا أو على مذهبكم ؟ فقال : أوهما مذهبان ؟ قال : نعم ، أما على مذهبكم : ففى الأربعين شاة شاة . وأما على مذهبنا : فالعبد لايملك مع سيده شيئا .